واقعية الخطاب التفسيري وتوجيهها للدلالة
تفسير ابن باديس أنموذجا

أ.زوالي نبيلة
جامعة الجيلالي اليابس – سيدي بلعباس

لقد شهد الدرس اللغوي العربي القديم أرقى مستوياته حين تعلّق بأسمى نص لغوي ألا وهو القرآن الكريم . وقد ثبت له من قوة الوجود وديمومة الحضور حتى أنه صالح للدراسة في كل زمان ومكان. و من حوله نشأت معظم العلوم العربية .

ولقد كانت ساحة التفسير منذ نزول القرآن الكريم مجالا فسيحا للعلماء إلتقت في رحابه مختلف العلوم، وهذا ما أفرز أشكالا من التفسير ؛ ومن هذه التفاسير تفسير ابن باديس. ولم يفسر القرآن الكريم في كتاب، وإنما كانت إملاءات يمليها في مجالس التذكير في المساجد والمناسبات الوطنية والدينية. وماوصلنا من تفسيره إلا تلك الإفتتاحية التي كان يفتتح بها مجلته من كلام الحكيم الخبير.

ومنهج ابن باديس في التفسير يحكمه تكوين معرفي وتوجه فكري ذاتي وذوق خاص في فهم القرآن فقد كان له زاد واسع في العلوم النفسية والكونية وفي علم الإجتماع و رأي سديد في عوارضه و أمراضه(1). ويتكئ ابن باديس في وجهنه المعرفية العامة على سند معرفي ربطه بواقع المجتمع آنذاك و الفترة الإستعمارية التي مر بها .

1 –توجيه الدلالة بالسياق العام

قد لا يكون من الحرج القول بأن أكبر الدوافع في بحث ابن باديس عن موجهات دلالات الآيات المتقاة للتفسير، هو الظروف العامة السائدة

في زمانه وهو ما اصطلح عليه الدرس اللساني الحديث بالسياق الخارجي .فقد كانت رؤيته الإصلاحية العامة تستند في جانب كبير منها على القرآن الكريم ، واتخاذآياته مصدرا لإصلاح الأفكار و السلوك .و أمام هذا الوضع لا يتصور أن تكون المعاني المستنبطة من هذه الآيات بعيدة عن الواقع ، وقد اختيرت لمعالجته بها. فقد كانت مشاهد الواقع الـذي ظـهر فيه التفسـير ،تتقاطع مــع مشاهد الجـهل والظلام والخرافة(2).

ولقارئ التفسير أن يختار ما يشاء من الآيات ليجد أن في اختيارها سببا وفي دلالاتها و معانيها ما احتكم إلى الواقع. فمثلا منن تفسير قوله تعالى :(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) سورة الإسراء –56– . فقد كان تفسيرالآية منطلقا لعلاج مظهر شركي تمثل في هيمنة فكرة الأولياء الصالحين وتحول مقاماتهم إلى مزارات تشد الرحال إليها .

فيبدأ بداية بشرح مفردة (ادعوا) بقوله: "الدعاء : هو النداء لطلب شيء من المدعو . ولذلك لا يدعى إلا العاقل أو ما نزل منزلته مجازا من الجمادات، أو مــا كان لـه فهم لبعض الأصوات من العجمـاوات . وإذا كان لشيء معظم ليطلب منه ماهو وراء الأسباب العادية ، وفوق الطاقة البشرية ، فهو عبادة . ولا يكون إلا من المخلوق لخالقه . وإن لم يكن كذلك فهو عادة. وهو دعاء المخلوقين بعضهم بعضا لغرض من الأغراض "(3). ثم يبدأ في توجيه الدلالة بتعقيب حول دلالة المفردة تحت تأثير السياق الإجتماعي والعقائدي السائد يومذاك .

وتتضح الصورة أيضا كلما أوغلنا معه في تفسيره للآية. فيسوق تحت عنوان (الأحكام) تعريضه بما عليه القوم مما حذرت منه الآية ونقرأ من قوله

"ودلت الآية أيضاعلى أنه لا يجوز دعاء غير الله من المخلوقين ، أي مخلوق كان لدفع ضر –ومثله جلب نفع– لأن الآية نعت على المشركين دعاءهم من لا يملك كشف الضر ولا تحويله ، وهذا أمر يشترك فيه جميع المخلوقين، فلا مخلوق يستطيع كشف الضر وتحويله عن نفسه ولا عن غيره فلا مخلوق يجوز دعاؤه." (4)

لقد صيغت الدلالة هنا على شكل عام انطلاقا من أن التفسير عام يستغرق ما أمكن من الزمان و المكان. وفي تلك الصياغة استحضار للصورة التي كان عليها الوضع العقائدي زمن نزول القرآن الكريم، وكيفية عرض الآية لها وعلاج أسبابها وهي الطريقة نفسها التي يعتمدها ابن باديس لعلاج القضية نفسها في زمن مختلف .

ولقد كان منطلق ابن باديس في توجيه الدلالة توجيها داخليا نصيا. استنطق فيه مفردات الآية، و قد سبقته عملية أختيار مقصودة للآية وهو تمهيد كانله أثره على نتيجة التفسير. ولم يكن استحضار سياق الآية التاريخي الذي نزلت فيه و مقارنته بالحالة، موضوع الدرس إلا خلفية استناد تضمن عدم الطعن في إسقاط النتائج.

2– خصائص لغة الخطاب التفسيري

تترجم وضعية ابن بايس مفسرا مقامه الإجتماعي حين وجد فسه وسيطا بيـن الخطاب القرآني بلغته العالية، وخصائـصه الفنية الراقية و حمولته الدلالـية الثرية وبين قومه الذين لم يكن اهم في زمنه من الكفاءة ما يستطيعون به تلقي هذه الرسالة على أحسن وجه. ولم يكن له سبيل يقارب فيه بين الجزائريين وبين قرآنهم إلا العمل على جبهتين في وقت واحد :(5)

1–التهيئة اللغوية للمتلقين والإرتفاع باستعداداتهم العلمية بإشاعة التعليم والارتقاء بلغة العامة ما أمكن من مستويات الاستعمال العربي الفصيح .

2-الإجتهاد في عرض نصوص قرآنية مختارة يعناية بالغة من جهة مواضبعها تصحيحا لمفاهيم أو تنمية لأفكار أو تهذيبا لسلوك، أواكتسابا لمعارف ووضعها سهلة ميسورة.

إن هذه الرؤية ترتسم من خلال متابعة محتوى الآيات القرآنية موضوع التفسير، وطريقة التعامل مع الأبعاد اللغوية على مستوى سطح نصوصها ونوعية اللغة التي تم بها توليد نصوص أخرى . فهي لغة احتفظت بالأبعاد التي يحملها النص القرآني لكونها لم تهمل المقامات الثقافية والإجتماعية و النفسية المختلفة للمتلقين . كما تجعل من المتلقي ركنا أساسا حين يصبح طرفا أنشئ لأجله النص المولد .

وهذا ما يفسر إدراك ابن باديس لدور اللغة ك"أحد أنظمة العلاماتالتي يستعملها الإنسان لتجسيد قصـده وتحقيق هدفه أي لتحقيق الإفهام و الفهم بين أطراقه من جانب و تحقيق ما يصبو إليه هو من جانب آخر.(6)

ففي سياق بيانه لحجم المرسلات قبولا عند المتلقين وأثره ما يستنبطه من قوله تعالى :(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن.) سورة النمل -125- .من التوجيه والتنظير لما يجب أن تكون عليه لغة المواعظ كأحد أشكال الخطاب ، فيقول : "وإنما يحصل المقصود منها إذا حسن لفظها بوضوح دلالته على معناهاو حسن معناها بعظيم وقعه في النفوس ، فعذبت في الأسماع و استقرت في القلوب وبلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية ." (7)

ومن هناشكل خطاب التفسير عنده قدرا معتبرا من الرسائل التي حرص على إرسالها تحت تأثير ظروف ثقافية واجتماعية ونفسية وفكرية حرجة

أسهمت بدرجات متفاوتة وبشكل واضح في إخراج الخطاب على هيأته الموصوفة

فقد خضع تحديد المعاني و توجيه الدلالات لاعتبارات معرفية تمثلت في أحكام المنظومة المعرفية العربية بعلومها من جهة ، واعتبارات واقعية أفرزتها أوضاع عقائدية واجتماعية وثقافية من جهة أخرى، وهي لاعتبارات التي وجهت المفاهيم الناتجة عن النص القرآني وتوزعت على مواضيع مختلفة من سطح تفسير الآية الظاهر و ما وليها من عمق فينتقي لكل معنى ما يناسبه من التراكيب والصيغ وقواعد البيان ويستجيب في الوقت ذاته لما يحيط به من الواقع والصور فكانت الدلالة موجها ودليلا.

الهوامش:

1-ينظر أحمد طالب الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997،ط1، ج2، ص252

2-ينظر عبد الكريم بوصفصاف، الفكر العربي الحديث والمعاصر – محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا-، دار مداد،قسنطينة،الجزائر ،2009،ط1،ج2،ص296

3-عبد الحميد بن باديس ،تفسير ابن باديس، دار المعارف،وهران،الجزائر ،1991،د.ط ،ص152.

4-المصدر نفسه ،ص154.

5-محمد بن سمينة ،اسس مشروع النهضة عند عبد الحميد بن باديس- المضمون وصورة التعبير، دار تالة ،الجزائر ،د.ت،د.ط،ج2،ص263.

6-عبد الهادي بن ظافر الشهري ،استراتيجيات الخطاب –مقاربة لغوية تداولية،دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت،2004،ط1، ص37.

7-عبد الحميد بن باديس، تفسير ابن باديس، ص411.